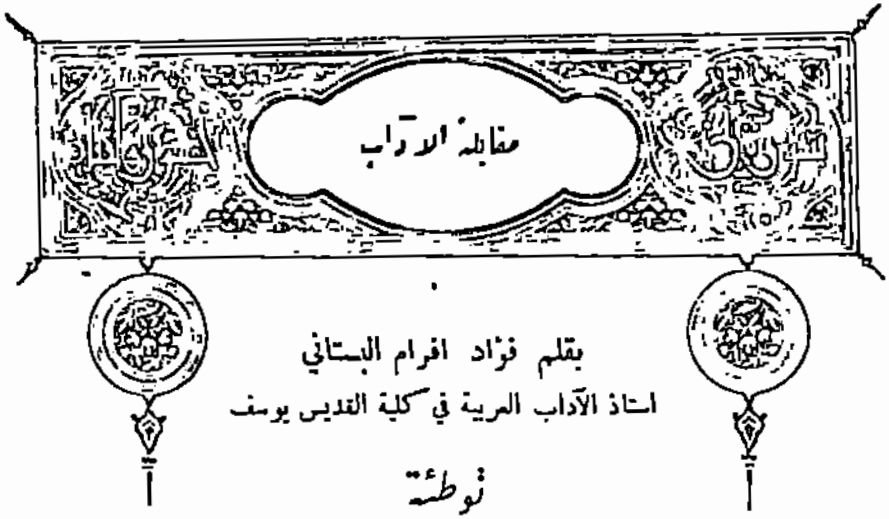

مقابلة الآداب

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

توطئة

الادب وتحديده

قليلةٌ هي الكلمات العربية التي تضطرب متقلقلةً بين المعاني المتباينة ، مترجحةً بين التصوّرات المتجاورة ، اضطرابَ لفظة « الادب » . فالأدب هو مُجمل الاخلاق الفطرية الحسنة ؛ والادب هو مجمل الصفات المكتسبة الصالحة ؛ والادب هو مجمل الشمائل اللطيفة التي يتّصف بها الرجل المهذَّب ؛ والادب هو معرفة الاصول والقواعد دون حصر ولا تخصيص ؛ والادب هو كل فنّ من المنظوم والمنثور . فترى ان لفظة الادب عرضةٌ للمعاني المختلفة تتنازعها من كل جهة ، وهدفٌ للكتّاب يحدّها كلٌّ منهم بما شاء . بعضهم يجعلها من الفنون ويقابل موضوعاتها بموضوعات العلوم الدينية [1] وبعضهم يجعلها من العلوم ويقسمها الى نوعين ، وستة فروع [2] او الى ثمانية فروع [3] او الى عشرة فروع [4] ، او الى اثني عشر فرعاً [5] . هذا فضلاً عن توسّع موضوعات الادب او حصرها باختلاف العصور ،

---

١) راجع دائرة المعارف الاسلامية في مادة « ادب »

٢) راجع الضبيّ : بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس (طبعة Codéra) ص : ٣٦٢

٣) تقسيم الانباري . راجع الاب شيخو : مقالات علم الادب ، الجزء الاول ، ص : ٤

٤) تقسيم الحسن بن سهل . راجع الحصري : زهر الآداب (طبعة الدكتور زكي مبارك) الجزء الاول ، ص : ١٤٠

٥) تقسيم الجرجاني . راجع الاب شيخو : مقالات علم الادب ، الجزء الاول ، ص : ٤

حتى اجتنب البعض ان يجعلوا له موضوعاً خاصاً ، ومنهم ابن خلدون فقال عن الادب : « هذا العلم لا موضوع لهُ يُنظر في اثبات عوارضه او نفيها . وانما المقصود منه ، عند اهل اللسان ، ثمرته وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم .»[1]

امّا اصل لفظة الأدب ، واشتقاقها ، وتفرّع معانيها ، وتطوّر استعمالها على اختلاف العصور ، فاوسع من ان يسمح لنا المكان بذكره . واننا نحيل الراغبين في مثل هذه الابحاث الى الكتب الخاصة بذلك ،[2] مكتفين بتحديد الأدب تحديداً واسعاً شاملاً ، كما ورد عن ابي زيد :

« الأدب كل رياضة محمودة يتخرّج بها الانسان في فضيلة من الفضائل .»

هذا ما نُقل عن ابي زيد في تحديد الادب في اوسع معانيه . والمراد به الأدب الكسبي . امّا الطبعي ، وهو ما فُطر عليه المرء من الاخلاق الحسنة والصفات الحميدة ، ممّا لا قدرة للانسان الّا على تحسينه او تشويهه ؛ فهو لا يدخل في بحثنا .

وكذلك لا يدخل في بحثنا هذا ، الادبُ الكسبي في واسع معناه المذكور آنفاً . فان من الرياضة ما تكون بحفظ القواعد النحوية البيانيّة والتمرّن على الكتابة باتباع الاساليب المختلفة محاكاةً لمشاهير المؤلفين . وهذا النوع يُعرفُ

---

١) ابن خلدون : المقدمة (طبعة بيروت ، ١٩٠٠) ص : ٥٥٣

٢) راجع من الكتب القديمة : معاجم اللغة في مادّة « ادب » ، وابن قتيبة : ادب الكاتب ؛ والمبرّد : الكامل ؛ والجاحظ : البيان والتبيين ؛ والرسالة السابعة من رسائل اخوان الصفا ؛ وخصوصاً : عبد القادر البغدادي : خزانة الادب (طبعة بولاق) الجزء الرابع : ص : ١٢٦ وفيه إختصار حسن للموضوع . — ومن كتب المحدثين : دائرة المعارف للبستاني . ودائرة المعارف الاسلامية الفرنساوية في مادة (ادب) . والاب شيخو : مقالات علم الادب ، الجزء الاول ص : ٣-٩ . وخصوصاً الدكتور طه حسين : في الادب الجاهلي ص : ٧-٢٩ ، والدكتور ، بعد ان يُنحي باللائمة على من يتكلّفون تحديد الادب فيتون بكلمة « ادب ومعانيها المختلفة في العصور العربية المختلفة » ، يُعنى هو نفسه بالكلمة نفسها ومعانيها المختلفة في العصور العربية المختلفة فيتكلّف تحديدها في احدى عشرة صفحة كبيرة ، ويفرض الفرضيات من معقولة ومنقولة . على انه يصل الى نتيجة قيّمة حقيقة بالانتباه .

«بعلم الادب» ويُحدَّد «بمعرفة ما يُحترز بهِ عن جميع انواع الخطأ في كلام العرب لفظاً وكتابة» . وكتب البيان كفيلة بشرحه وتدريسه.

امَّا الادب المقصود في موضوعنا فهو مُجمل مولَّدات الفكر البشري المعبَّر عنها بالمبنى الأنيق على اختلاف اشكالها ومواضيعها . ودرس الادب يكون بالنظر في هذه الآثار الفكرية وانتقادها ، وبعرضها على نظريات «علم الادب» ثم بالحكم عليها.

تاريخ الادب وفوائده

ولما كان لكل شعب من الشعوب سلسلة من الآثار العقلية او المولدات الفكرية تبتدئ بنهضته من طور الهمجية الى طور التمدّن ، وتنتهي بخموله واندثاره ، كان من الواجب على دارس ادب ذاك الشعب الاَّ يستأثر بعصر من عصور تفكيره او بمظهر من مظاهر مدنيته ، بل يتتبَّع جميع عصور حياته ومظاهرها حتى يكون حكمه عادلاً ، وتقديره مطابقاً للواقع . فكان إذاً من الواجب الموافقة بين معرفة آثار الشعب العقلية ، وآثاره المادية كالحروب ، والسياسات ، وطرق المعيشة المختلفة . وكما دُعي هذا العلم بتاريخ الشعب دُعي العلم الأول بتاريخ ادب الشعب المذكور.

فتاريخ الأدب في شعب من الشعوب هو «درس آثار الفكر في هذا الشعب وتتبُّعها على مدّة حياته منذ النشأة الى الازدهار ، الى الخمول ، الى النهضة — ان كان ثم نهضة — الى الانحلال فالتلاشي.»

وكما ان تاريخ الشعب لا يُعنى إلَّا بالحوادث والآثار المادية المهمَّة ، فيترك في زوايا النسيان كل الاعمال الثانوية التي لم يكن لها من تأثير في مجموع الامة. كذلك تاريخ الأدب فهو لا يكترث الَّا لآثار الفكر القيِّمة البارزة بالمبنى الأنيق التي تقوى على تقلبات الزمان وتمكن الاستفادة من درسها لمن يأتي بعد عصر اصحابها الادباء والعلماء.

امَّا فوائد هذا الدرس فكثيرة تنتج ممَّا تقدَّم من المبادئ والتعريفات وأهمها :

١ً — معرفة اساليب التفكير الاجمالية في شعب من الشعوب ، والطرق

التي يسير عليها الكتّاب في التعبير عن افكارهم . مع الاستفادة من تطوّر هذه الأساليب بتطوّر التأثيرات الخارجية من دينية ، واجتماعية ، وسياسية ، فيمكن الدارس تمييز انشاء عصر من انشاء غيره من العصور .

٢ً — معرفة اساليب التعبير التي تفيدها اللغة في عصر من العصور بفضل مرونتها الاصلية وما يدخل اليها من المفردات اللازمة العلوم الدخيلة ، وما يندثر فيها من المفردات الوحشية بفضل انتقال الشعب من الهمجية الى المدنية . فضلاً عن الاطلاع على الحركة العلمية واللغوية التي تجعل لكل عصر لغته الخاصة تقريباً بمفرداتها وتعابيرها وطرق ترتيب الانشاء فيها .

٣ً — معرفة شخصية الكتّاب الأدبية وهي لا تقلّ اهمية عن شخصيتهم الحيوية . وكما ان الانسان يُسرّ او يُساء من التعرّف الى اشخاص التاريخ المدني فيطمئنّ الى الصفات الحميدة ويُعجب بالاعمال الباهرة ، ويشمئزّ من الاخلاق السافلة ، ويذمّ المآتي الخاطئة ، في الأشخاص الذين يدرس سيرهم وآثارهم في تاريخ الأمم والشعوب . كذلك نراه يأنس بالكتّاب والشعراء فيعجب بشخصية المبرّزين منهم ، ويدفع به الميل الى تفضيل من يطابق افكاره والتعصّب لمن يوافق مزاجه وعقليّته من اعلامهم المشهورين . حتى انهُ يُصبح بفضل درس الشخصيّات الادبية وما فيها من الاستقلال بالتعبير ، والاختصاص بنوع التفكير ، قادراً على التمييز بين كاتب وكاتب ، وشاعر وشاعر ، وإلحاق القول بقائله . وهو امرٌ ممكن لما تقرّر في درس الشخصيات الادبية من انّ المؤلف النابغة يختصّ بفكرة عامّة ، او بطريقة للتعبير يحتفظ بها في كل مآتيه الادبية ، ويحوم عليها في جميع تآليفه ، فيكرّرها على صور مختلفة ، ويجري اليها في تضاعيف انشائه من دون ان يشعر بعض الأحيان .

٤ً — وهناك فائدة لدرس تاريخ الآداب اهمّ من كل ما تقدّم بسبب اتساعها ، ولكنها تتطلب شروطاً خاصّة . وهي انماء الثقافة العامّة بالمقابلة بين آداب الأمم المختلفة . وشرطها الخاصّ هو درس آداب عدة أمم ، كأن يدرس الكاتب مثلاً ادب الامة اليونانية ، او اللاتينية ، او الفرنسوية ، او غيرها من الآداب العصرية ، ويقرن اليها درس الآداب العربية . ثم يقابل بينها جميعاً ،

او بين اثنتين منها ، فيبين اوجه الشبه بين كتّاب اختلفوا عصرًا ، وبلدًا ، وتنشئةً ، ولغةً ، ودينًا بعض الاحيان ؛ ويستخلص مما اصبح ايضاً بحكم المقرّر من ان لبعض الظواهر الحيوية تأثيرًا واحدًا في البشر على السواء ، يدفعهم الى إصدار حكم واحد مهما تنوّعت نزعاتهم وشخصياتهم . وهذا الدرس يُدعى بعلم «مقابلة الآداب» ، او درس الآداب بالمقابلة . وهو علم حديث اهتمّ به الاوربيون في عصرنا فافردوا له في صحفهم الادبية حقولًا خاصّة ، وانشأ له بعضهم مجلّات مستقلّة يقوم بتحريرها جماعة من اختصاصيي الادباء ، فيصفون ما يظهر من الآثار الادبية خارج بلادهم ، ولا يكتفون بدرس آدابهم الوطنية بل يقابلونها باكثر ما يمكنهم من الآداب الاجنبيّة . فيوسّعون عقلية الانسان على الجملة ، ويزيلون من امام الفكر البشري ما تقيمه النزعات الوطنية والعنصرية من حواجز التاريخ والجغرافية .

على انهم قلما يهتمون بالآداب العربية . بل هي لا تدخل في حلقة اتجاهاتهم الّا من جهة الدروس الفردية ، كأن يقوم احد المستشرقين مثلًا فيدرس نقطة خاصة ، مثل تأثير كليلة ودمنة في امثال لافونتين وما شاكلها ، او تأثير قصّة المعراج والإسراء في الالهوبة الالهية لدانتي ، او المقابلة بين الزجل والموشحات الاندلسية وبعض الاناشيد الاوربية في فرنسة وانكلترة وايطالية واسبانية

بيد اننا نودّ ان نتوسّع في هذا الموضوع ، فقد نحوز مقياسنا الادبي بعرضه على مقاييس الأجانب ، وقد نحسّن ذوقنا بصقله باذواق الغير ، وعلى الجملة فاننا نفيد آدابنا بان نفتح في صرحها الشامخ نافذة على آداب الناس فتتأثر بها وتؤثر فيها . وهذا جلّ ما نطمح اليه في درس الادب.

امّا وقد ظهر المراد من «مقابلة الآداب» ، فسنبدأ في العدد القادم بشرح ضرورة هذا العلم في عصرنا ثم نباشر القسم الأول ، بتحقّق التشابه غير المقصود بين منتوجات ادباء العرب ومنتوجات غيرهم من ادباء الشعوب الاجنبية ، وهو ما نسمّيه «بتوارد الخواطر» . ثم ننتقل الى تحقّق التشابه المقصود ، فالاقتباس ، فالتأثر ، فنذكر الطرق التي تمكّننا من الاطلاع على تلك الآداب الاجنبية ، واهمّها التعريب .